أحساب الدولة الفاطمية

اختلف المؤرخون قديماً وحديثاً في نسب عبيد الله المهدي رأس الأسرة الفاطمية فقال بعضهم مثل ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان، والذهبي في كتابه تاريخ الاسلام وغيرهما، إن نسب الفاطميين مدخول عليهم، وأنهم منه كمن يدعي أن النجار من الذهب، وأنهم ينتمون أصلاً الى رجل مجوسي هو عبيد الله سعيد ابن الحسين بن احمد بن عبد الله القداح ابن أبي شاكر ميمون بن ديصان الثنوي المذهب، لأنهم يقولون بوجود الهين اثنين النور والظلمة، وديصان هو ابن سعيد الغساني، صاحب كتاب الميدان في نصر الزندقة. وله من كور الأهواز من المجوس. وكانوا يقولون لكل شيء من العبادات باطناً، وان الله تعالى ما أوجب على أوليائه صلاةً ولا زكاةً ولا صوماً ولا حجّاً، ولا حرّم عليهم شيئاً من المحرّمات، وان هذه العبادات عذاب على الأمة، كما كانوا يبيحون نكاح البنات والاخوات. وكان من رأيهم أن الأنبياء طلاّب رئاسة، فهم لذلك محتالون كاذبون، وانهم كانوا يظهرون التقشف والزهد والتصوف وكثرة الصلاة والصيام ويأمرون الناس بذلك وهم على خلافه، وانهم كانوا يظهرون التشيع والبكاء على أهل البيت، ليخدعوا ضعاف العقول، وأن عبد الله ابن ميمون رتب سبع دعوات يتدرّج فيها الشخص الى الكفر.

أو هم يهود، إما لأن الحسين لما قدم الى سلمية (من أعمال حمص الشام) جرى بحضرته حديث النساء، فتزوج بامرأة رجل يهودي حداد يسمى هي أم سعيد وكانت بارعة الجمال. وقد مات عنها زوجها وهما ولد من اليهودي فأحبه وأدّبه. ولما لم يكن له ولد عهد الى ابن اليهودي الحداد هذا بالعلامات، وعرّفه أسرار الدعوة وبالاموال وأرشده عن الدعاة ومكانهم، ثم زوّجه ابنة عمه محمد بن أحمد المكنى بأبي الشلغلغ، وطلب الى أصحابه أن يقوموا بطاعته وخدمته، فكان هو الامام عبيد الله المهدي الهاشمي النسب.

وإما لأن صاحب سجلماسة « اليسع بن مدرار » لما رأى جيوش الشيعي قادمة لتخليص المهدي وابنه القائم ، وكانا قد سجنهما وتيقن من انهزام جيوشه أمام جيوش الشيعي ، قتل المهدي وفرّ في ظلام الليل ، وان الشيعي لما دخل سجلماسه وعلم خبر موت المهدي تخوّف من كتامه لانه كان يعدهم بخروج المهدي وتملكه الأرض ، خشى زوال ما بيده ، فأخرج لهم رجلاً يهوديًّا كان يخدم الشخص المقتول ، وقال لهم هذا امامكم وامام الاسماعيلية .

وذهب آخرون كابن الاثير في تاريخه الكامل ، وابن خلدون في مقدمته ، والمقريزي في خططه ، وفي اتعاظ الحنفا وغيرهم ، أن النسب صحيح وأنه علوي فاطمي إذ هو عبيد الله بن الحسن ابن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . وأكبر الظن ان نسب عبيد الله المهدي صحيح الى فاطمة الزهراء والامام عليّ . ودليلنا على ذلك الحوادث الآتية :

١ — احتفظ أشبال الامام علي بمكانتهم الرفيعة بين الشيعة ، وكان هؤلاء الاحفاد بحمد الله وفرة في العدد ، فلا يعقل أن شيعتهم يعرضون عنهم للدعاء لابن مجوسي أو ابن يهودي

٢ — لو كان في نسب الفاطميين مغمز لما خضع لامامتهم يحيى بن ادريس بفاس أو سلالة الحسن بن زيد العلوي باليمن ، أو الحسن بن جعفر الحسني بمكة ، أو الأمراء من بني الحسين بالمدينة وغيرهم . وكلهم سادة علويون فيهم العالم بالانساب ، يرهم الذب عن نسب الرسول

٣ — لو لم يكن عبيد الله المهدي من النسب الشريف لما نزل عليه مستخفياً خوفاً من بطش الخليفة العباسي المكتفي بالله . واذا لم يكن اماماً علويًّا صحيح النسب من أهل البيت لما تواترت كتب الخليفة العباسي بأوصاف المهدي لولاته على مصر وبرقة وطرابلس وافريقية والمغرب للقبض عليه .

٤ — يقول ابن طاهر في كتابه أخبار الدول المنقطعة المخطوط الفوتوغرافي ورقة ٤٠ « ان الشيعي لما دخل (سجلماسة) وعلم خبر موت المهدي . . . أخرج لهم رجلاً يهوديًّا » . ومن يبحث هذه الواقعة مسترشداً بشعل النقد ، يرى أن هذا المؤرخ اعتمد على مجرد النقل ، سواء أكان غشًّا أم تمويهاً ، إذ كيف يمر الشيعي على هذا اليهودي بهذه السهولة مع وجود « القائم » ابن المهدي ؟ أليس من المنطق والمعقول انه اذا كان قد قتل المهدي حقيقة ولم

بقتل ابنه كما هي رواية ابن طاهر، أن يجلس الشيعي ابنه القائم مكانه ؟ !

بل لو فرض جدلاً أن البسع ابن مدرار صاحب سجلماسة عند ما هرب ليلا بقتل المهدي وابنه، وهو ما لم يقل به أحد هنا، أبلغت البلاغة بالشيعي أن لا يفكر حتى في مسلم ولو غير علوي ليجلسه مكانه .

٥ — قال نفس المؤلف في نفس المخطوط ص ٤٧ « لما دخل مصر (أي المعز لدين الله) لقيه أشرافها وخاطبه من بينهم الشريف عبد الله بن احمد بن طباطبا الحسيني. وقال له: الى من ينتسب مولانا ؟ فقال: سنعقد مجلساً ونجمعهم فيه ونسرد لهم نسبنا. ولما استقرّ بالقصر جمعهم في مجلس وجلس لهم وقال: هل بقي من رؤسائكم أحد ؟ فقالوا لم يبق معتبر، فسلّ عند ذلك لهم نصف سيفه . وقال: هذا نسبي. ونثر عليهم ذهباً كثيراً. وقال هذا حسبي، فقالوا جميعاً سمعنا وأطعنا ، وانصرفوا من عنده ».

هذه قصة في رأينا مختلقة غير منطبقة مقدمتها مع مؤخرتها ، ولعل تصوّره الرواية على أنه شجاع، يعترض الخليفة وهو في أوج عظمته، ويسأله عن نسبه، ثم تصوّره بعد ذلك بالجبن، لأنه سكت عند ما سمع ما سمع من الخليفة .

ثم كيف سمح جوهر لرجل عُرف بين الناس بالطعن في نسب مولاه المعز لدين الله بأن يبقى حرًّا طليقاً حتى يوم قدوم الخليفة ليلقاه بهذه المثالب .

ثم هي رواية فيها يعتد الخليفة بقوته وماله ولا يعتد بإمامته وهيبة انتسابه لآل البيت مما نلحظها دواماً فيه .

ويكفي لهدمها أن نقول أن ابن طباطبا مات سنة ٣٤٨ هـ وإن المعز لدين قدم لمصر سنة ٣٦٢ هـ .

٦ — فاذا أضيف إلى ذلك أن الكلام في نسب العبيديين لم يخلق إلاّ في أوائل القرن الخامس الهجري، حين بلغت الأحقاد والأضغان أقصى مداها ، وعند ما توغل الفاطميون في أملاك الدولة العباسية وبسطوا سلطانهم في ثلاث من حواضر الاسلام الكبرى ، المدينة، والفسطاط، ودمشق، وبعد أن أقيمت لهم الدعوة بالمغرب كله وبالبلاد المصرية وسوريا واليمن والحرمين وبعض بلاد الجزيرة ، وحين ضيقوا المسالك في وجوه العباسيين حتى في بغداد

نفسها حاضرة خلافتهم. فهنا وهنا فقط كتب الخليفة العباسي القادر بالله محضراً في بغداد في ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هـ وهو خصمهم وأخذ فيه خطوط القضاة والأئمة والاشراف ينفي نسب الفاطميين من علي بعد أن ملأه باللعن المزري ، والقدح المشين في انسابهم وعقائدهم لتنفير الناس منهم .

ونرى أن هذه الصحيفة يعوزها الدليل العلمي ، لأنها قائمة على مجرد السماع ، خصوصاً وأن موقعيها كانوا تحت تأثير الخليفة. وأكبر دليل على ذلك عدول أحد الشهود عما قرره فيها . فقال :

أنبس الذل في بلاد الأعادي وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولا ي اذا ضامني البعيد القصي
لفّ عرقي بعرقه سيد النا س جميعاً محمد وعلي .

فلما علم الخليفة القادر بالله العباسي ، أن الشريف الرضي كتب تلك الأبيات التي تثبت صحة نسب العبيديين ولم يودعها ديوانه خوفاً من العباسيين ، استدعى والده الشريف ، فحلف انه لم يسمع بها ، فطلب أن يعتذر الشريف الرضي للخليفة العباسي ، وأن يطعن في نسب المهدي. فلم يرض الشريف الرضي ، فهدده والده بألا يقيم معه في بلد . فحلف له فقط أنه لم يقل هذه الأبيات ، وبقي امتناعه عن الاعتذار ، وعن كتابة طعن في نسبهم ، كما كان يريد الخليفة العباسي ، أدلة ساطعة على صحة نسبهم .

عنايت مصطفى مشرفه

المراجع

ابن ظافر اخبار الدول المنقطعة المخطوط الفوتوغرافي ورقة ٣٩ و ٤٠
وابن الاثير في تاريخ الكامل ج ٨ ص ١١٨ (طبعة ليدن) وأبو شامة كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٠٦ (القاهرة ١٢٨٧ هـ)
وابن خلكان وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٨٧ (بولاق ١٢٨٣ هـ)
والنويري نهاية الارب المخطوط ج ٢٦ ورقة ٢١ و ٢٢ و ٢٤ و ٢٥
وأبو الفدا المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٦٣ — ٦٤ (طبعة الحسينية)
والمقريزي الخطط ج ٢ ص ١٥٨ — ١٥٩ و ٢٣٣ — ٢٣٤
وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٥ — ٧٧ (القاهرة ١٩٢٩ م)
وابن اياس بدائع الزهور ج ١ ص ٥٦ و ٥٧ (بولاق ١٣١١ — ١٣١٢)
وأبو العباس احمد القلقشندي كتاب صبح الاعشى المخطوط ورقة ١٠٦